# الدلالة الجديدة والتطور اللغوي

الدكتور إبراهيم السامرائي - بغداد - كلية الآداب .

شارك العرب الاقدمون فى العلم اللغوي كما شارك غيرهم من الامم القديمة كاليونان والهنود والصينيون . ولعله من غير المجدي فى عصرنا الحاضر ان نبحث فى اصل اللغة ، والذي يعنينا من اللغة انها مظهر ونشاط للطبيعة البشرية الانسانية . وينبني على ذلك أنها مظهر من مظاهر علم الاجتماع الذي يعنى بالنشاط الانساني فى مختلف احواله .

واتصف « علم اللغة » فى العصر الحاضر بالصفة العلمية الخالصة ذلك أنه ليس مادة يستعان على ادراكها بالتأمل كما كان فى عصور سلفت . انه الآن مادة موضوعية يتبع فى علاجها ومعرفتها المنهج الوصفي ، ومن هنا يدخل التطور اللغوي فى هذا المنهج .

ان علم اللغة بهذه الحدود الجديدة من العلوم الغربية الحديثة التى بحثها الغربيون وتشعبوا فيها ، وقد كان ذلك اثر الاهتمام بما دعاه كريم Grimm بالقوانين الصوتية فقد كان سائدا أنها قوانين عامة شاملة تنبطق على جميع اللغات وهي كالقوانين الطبيعية الاخرى .

وقد عرضوا لاسباب هذا التطور فى الاصوات فردوا ذلك الى الاختلاف الذى يحصل فى اعضاء النطق ، وقد عرضوا فى ذلك لجملة من الملاحظات والتجارب لاثبات ما يعتور الاصوات من تغيير اذا ما حدث اي تشويه فى اعضاء النطق .

ومنهم من رد هذا التطور اللغوي الى ما يطرأ على المجتمعات من اختلاف الظروف الجغرافية والمناخية . وهم يبنون هذا على جملة وقائع عرضت لشعوب مختلفة فى تطورها التاريخي . على أنهم يذهبون مذاهب فى تفسير هذا التطور الصوتي ، غير أن هذه التفاسير المختلفة لا تسلم من الطعن فيها فهي وان كانت وجيهة فانها تفتقر دائما الى الاصالة والشمول ، بحيث يمكن الاخذ بها على أنها نظريات ثابتة .

وقد حلا لبعضهم ان يفسر التطور الصوتي بقوانين « مندل » فى الوراثة ، والرد على هذا من الامور الهينة . وقد استعاروا طريقة تشارلز دارون العالم الانكليزي فى التطور وهو ما يدعى بـ «المذهب الطبيعي» . قال دارون فى كتابه « اصل الانواع بمائة تنازع البقاء وظهور « The Origin of Species » صفات خاصة فى بعض الافراد وانتقال الصفات الخاصة بالوراثة الى النسل وشيوع هذه الصفات وكثرتها بحيث يمكن اعتبار من يرثها من النسل نوعا مختلفا عمن لم يرثها . وقد طبق العالم الجيولوجي « ليل » هذه النظريات على اللغة فقرر : « ان الانواع فى الطبيعة ، واللغات فى التاريخ تتغير تبعا لنواميس متشابهة ... والعاملان الجوهريان فى اللغات هما كما فى الانواع الطبيعية التغير والانتخاب الطبيعي . وكما يحصل فى الانواع يحصل كذلك فى اللغات أيضا نتائج عظيمة لتجمع اسباب عديدة صغيرة لا قيمة

لها فى حد ذاتها كادخال عبارات اجنبية وكثرة الخطباء والكتبة والاختراعات والاكتشافات وتعلم علوم جديدة وتنازع الالفاظ الى غير ذلك مما يغير اللغة » (1) .

ثم جاء بعد « ليل » العالم اللغوي شليخر فنشر كتابه بعنوان « دارون وعلم اللغات » وقد قرر فيه « ان مبادىء دارون ينطبق جميعها على كيفية نمو اللغات فان جميع اللغات الاوربية يكاد يكون لها اصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية ، ومنها تفرعت عدة فروع باديء ذي بدء ثم تفرع من هذه الفروع فروع اخرى . على أن تفسير التطور اللغوي بهذه المحاولات لم يكن الا مجرد آراء اخذ بها اللغويون فى مطلع هذا القرن ، وهي من غير شك محاولات لا تسلم من النقد الذى وجه اليها .

غير انه من الثابت ان التطور اللغوي يحدث فى مادة اللغة التي تؤلف بنيتها وكيانها واعني بذلك الالفاظ التى تبنى منها اللغة . هذه الالفاظ يخضعها الاستعمال فتجد فيها خصوصيات معنوية ذات ظلال دلالية Sémantique جديدة يستدعيها الزمان والمكان . وليست العربية بدعا بين اللغات ، ذلك ان اللغات كافة تخضع لسنة التطور ، وان الكلمة فى كثير من اللغات مادة حية يعمل فيها الزمان ويؤثر فيها وتجد فيها الحياة فتتطور وتتبدل وربما اكتسبت خصوصيات معنوية ابعدها الاستعمال عن اصلها بعدا قليلا او كثيرا . وليست العربية بنجوة من هذا الذى يطرأ على غيرها من اللغات .

وعلى هذا يتحتم على الباحثين والدارسين ان يأخذوا انفسهم بالمنهج الوصفي ، فان كثيرا من الالفاظ انتقلت انتقالات عدة بحيث أن « المصطلح الفني » يؤلف مثلا مرحلة معنوية من الدلالة التى انتهت اليها لفظة من الالفاظ او تركيب من التراكيب.

فلا بد أن يعنى المعجم الحديث بهذه الناحية ويثبت هذه الالفاظ التى جدت فى العربية واقتضتها ظروف المجتمعات الجديدة .

ومن العجب ان المعجم العربي الحديث لم يول هذه الناحية ما تستحقه من عناية كافية وربما تنكر اصحاب المعجمات الحديثة لهذا النوع من المولد الجديد . وليس عجيبا أن يكون نفر من هؤلاء ما زال يعد الجديد المولد غير فصيح وان اقتضاه عصرنا وجرى عليه الاستعمال ، وشاع وقيد فى النصوص والوثائق . وهذه النظرة وان تمسك بها جماعة من اللغويين فى عصرنا فان المعربين كافة اخذوا انفسهم باستعمال الجديد ، وقد بحث الاوربيون فى هذه الناحية والفوا فيها مصنفات عدة ما زالت تدرس حتى يومنا هذا (2) .

واذا عدنا الى عربيتنا الحديثة وجدناها تزخر بمئات من الالفاظ الجديدة المولدة والمعربة وقد أخذت طريقها الى الاستعمال وصارت مخصصة مقيدة بنوع خاص من المعنى . غير ان اللغويين ما زالوا مترددين فى عد هذا الجديد من الفصيح .

ان عربية يومنا هذا غير تلك العربية التى كان ابناء امسنا القريب فى مطلع هذا القرن يعربون بها . ومن غير شك أن عربية هذا الاقليم تختلف عن عربية اقليم آخر فى هذا الوطن العربي الفسيح الارجاء . ومن غير شك ايضا أن خصائص العصر لا بد ان نلمسها فى لغة اية حقبة . ان هذه الحال تصدق اذا عرفنا أن القدماء قد جردوا من اللغة طائفة من الالفاظ والاستعمالات تتصل بحقبة من الحقب او بنظام سياسي معين او بلون اجتماعي خاص او بفرقة من الفرق ، كأن تكون هناك الفاظ عباسية واخرى من المجازات الاسلامية كمجازات القرآن ومجازات الحديث، وطائفة لغوية ذات علاقة بالتصوف الاسلامي ، وطائفة اخرى تتصل بالفلسفة الاسلامية.

وجاء العصر الحديث وبرزت الحضارة الغربية وتطلع العرب الى الوان هذه الحضارة فوجدوا أن لا ضير على الحضارة الاسلامية من اخذ شيء من الوان هذه الحضارة الوافدة . وسواء رضينا ام ابينا هذه الالوان الجديدة فانها لابد أن تجد سبيلها الينا . وكان من ذلك ان صارت لغتنا العربية معبرة عن خصائص هذا العصر الجديد فحفلت بالفاظ جديدة كما حفلت بطرائق جديدة فى الاستعمال .

قلت : قد حفلت العربية الحديثة بالفاظ جديدة . ان عنصر الجدة فى هذا الموضوع هو ان

---

(1) من المقالة الثانية من كتاب « فلسفة النشوء والارتقاء » لشبلي شميل ( مطبعة المقتطف مصر 1910 ) ص 120 – 121 .

(2) من هؤلاء Darmestetiv فى كتابه « حياة الكلمات » La vie des mots . ومنهم Whiteney فى كتابه « حياة اللغة » La vie du langage . ومنهم Richard و Ogden فى كتابهما The Meaning of Meaning